الفصل الخامس

ألقى المحترم إسحاق التحية على أحد الجالسين في صالة الانتظار قائلاً:

_ مرحباً سيد يعقوب!

استند الرجل واقفاً.. وأخذ يُدير نفسه لكي يُسلم على المحترم:

_ كيف حالك أيها المحترم إسحاق؟

قال المحترم مبتسماً :

_ بخيرٍ أيها الرجل الطيب.. كيف هي حالك أنت؟

قال السيد يعقوب مبتسماً.. ويبدو أنه يُكِن الكثير من التقدير للمحترم:

_ بخير أيها الرجل الصالح.

وأخذ المحترم بيده يجلسان.. ثم قال المحترم:

_ كيف هي حالك سيد يعقوب؟

ردَّ الرجل المسن قائلاً :

_ بخير أيها المحترم.. ولكن كما ترى.. لقد كبرت.. وأصبح الموت أقرب شيء لي، وإني خائف مما فعلت في حياتي من الذنوب.. ولا أدري ما الذي سيُفعل بي من جرآء ذلك..

وظهر الأسى والحزن على وجهه السيد يعقوب.. فقال المحترم له:

_ كل ما عليك فعله؛ هو أن تطلب العفو من الله، وأن يغفر لك ذنوبك سيد يعقوب!

قال السيد يعقوب:

_ إني استغفره.. إلا أنني ما زلت خائفاً.

قال المحترم يُسكِّنه ويُخفف عنه.. ووضع يداه على يده:

_ مما تخاف ؟ إن الله يغفر الذنوب جميعاً.. وما عليك أن تحزن لخوفك هذا.. بل هو خير لك.. اجعل خوفك هذا سبباً يزيدك في الاستغفار.. وها أنت ذا قد علمت أن الله يغفر الذنوب جميعاً؛ فاجعل خوفك هذا مزيداً لك في الاستغفار.

قال الرجل وبدا عليه انشغاله بم يهمه:

_ أستغفر الله.. أستغفر الله.

قال المحترم ناظراً إليه ومُمعناً النظر في عينيه:

_ أتعرف سيد يعقوب! أنه لمَّا يُذنب عبد ذنب.. فيقول أستغفر الله.. يقول الله تعالى: أوعلم عبدي.. أن له رباً.. _وكان المحترم يقطع ما بين الكلمتين من اندماجه وإفهامه لما يريد أن يقوله_ يغفر الذنوب.. ويأخذ ويُحاسب بها؟ غفرت لعبدي. وبعد حين؛ أذنب هذا الشخص ذنباً آخر.. فقال ربي اغفر لي! فيقول الله تعالى: أوعلم عبدي.. أن له رباً.. يغفر الذنوب.. ويأخذ بها؟ غفرت لعبدي. وبعد حين أذنب هذا الشخص أيضاً ذنباً آخر.. فقال

ربي اغفر لي! فيقول الله تعالى: أوعلم عبدي.. أن له رباً.. يغفر الذنوب.. ويأخذ بها؟ غفرت لعبدي فليفعل عبدي ما شاء!

وعلى استماع الرجل بإنصات منه شديد؛ أكمل المحترم قائلاً بعد أن سكت هُنيهة:
_ وما دمت يا سيد يعقوب مستغفراً؛ فإنك تجد أن صدرك منشرحاً.. ولكن الهم والحزن كل الحزن أن تُذنب ذنباً ولا تستغفر الله بعده.. فهذا هو الحزن والهم حقاً.. فالله خلقنا نذنب فنستغفره فيغفر لنا.. فالحزن والهم يا سيد يعقوب أن تذنب ولا تستغفر.. وواجب عليك أن تحزن ويُصيبك الهم؛ إذا ما أذنبت ولم تستغفر الله ونسيت أن تستغفر.

قال السيد يعقوب وعينه إلى الأرض:
_ أستغفر الله.. أستغفر الله ربي.

في هذه الأثناء؛ لمح المحترمُ دانيالَ خارجاً من باب المشفي.. فوقف وأخذ يتابعه ببصره؛ فلاحظه يعبر الشارع.. وبدا له أنه ذاهب للحديقة الواقعة أمام المشفى. جلس المحترم ودون كلام؛ أخذ يُفكر في دانيال وخروجه للحديقة.. ثم نظر ناحية السيد يعقوب وقال:
_ فالحز..

_ أما زلتم موجودين وتتكلمون ؟ ألا تستحون من أنفسكم ؟ _أحد الجالسين قاطع المحترم إسحق.. ويبدو أنه استمع لما جرى من كلام بين المحترم والسيد يعقوب_

نظر المحترم إليه ومحاولاً الاستيعاب.. قال:

_ استسمحك عذراً !

قال هذا الرجل، ويظهر عليه من خلال هذه الضمادة التي على يده أن به جرح بسيط وقد أتى للعلاج:

_ ألا تنتهون أيها الناس وتخلعوا عنكم هذه الأفكار التي تخدعون بها الناس؟ استغفار ماذا وأي ربٍّ هذا الذي تتكلم عنه؟

أجاب المحترم.. ويا للإشراق على وجهه وبشاشته.. قال :

_ أوتعني كيف أني أحدثه عن عدم خوفه وأنه يطمئن مادام مستغفراً.. وأن خوفه ذاك يستدعيه لمزيد من الاستغفار لذنوبه.. أعن هذا تتكلم؟

ابتسم وكأنه ساخراً قال الرجل :

_ أتصدق ما تقول فعلاً ؟

ردَّ المحترم غير منتظر تحمية هذا الشخص للنقاش ومحاولته إظهار بطلان الإيمان.. فقد فهم المحترم مقولته.. وعرف أنه أحد الملحديين المجادليين.. فقال المحترم:

_ أصدقه صدقي بأنَّـا.. أنا وأنت موجودون ونتحدث الآن !

فالرجل يخبرني أنه يشعر بأنه قد اقترب أجله.. وأنا أردُّ عليه وأحاول أن أهدأه وأقول له إن الله هو أرحم الراحمين؛ ثم ها أنت تستعجب لوجود مؤمنين بالله رغم كل تلك العلوم والعلم.. ورغم كل تلك المعرفة والإمكانيات.. ورغم كل ذلك الرقي والتحضر.. أعتقد أن هذا من قبيل ما تريد أن تقول.. أليس كذلك ؟

هل الدين قد اخترعه الإنسان أم هو أصل فيه؟

تبسم الملحد وقال:

_ ونسيت أن تضيف أيضاً بأن "الإله" الذي تعبدونه؛ ما هو إلا "وهم" في مخيلتيكم.. "وهم" قد صنعه الإنسان البدائي لأنه رأى أشياء أكبر من قدرته؛ فلجاء إلى اختراع هذا "الإله" لكي يُساعده.. وهكذا كان يعتقد.

قال المحترم:

_وماذا أيضاً؟

قال الملحد:

_وأن الدين المنتشر في المجتمعات؛ ما هو إلا ظـاهرة اجتماعية قد اخترعها الإنسان البدائي للحفاظ على المجتمع وللخروج به أيضاً من أزماته كما قلت لك! وأن الدين هذا كالأفيون.. أفيون تعطونه للشعوب كي تخدروها ثم تسرقوها باسم الدين.

قال المحترم:

_وأين هو دليلك على أن الدين لم يكن موجوداً منذ بداية الإنسان.. وأنه قد تم اختراعه في فترة من تاريخ البشرية؟ وأنه إذا كان الدين حقاً اختراع؛ فلماذا لم يخترع الإنسان أشياء أخرى على مر تاريخه الطويل؟

قال الملحد:

_الدليل هو كلام علماء الاجتماع وعلماء الدراسات الإنسانية؟

قال المحترم:

_وماذا يقول هؤلاء العلماء ؟

قال الملحد:

_يقولون الكلام الذي قلته لك بعدما أفنوا أعمارهم في الأبحاث والاستنتجات.

قال المحترم:

_إذاً هي مجرد استنتاجات ونظريات وليست دلائل وثوابت!

قال الملحد:

_بل هي ثوابت ودلائل.. وتوجد آلاف الأدلة على ذلك!

قال المحترم:

_اعطني دليلاً واحداً على أن الإنسان لم يكن له دين منذ وُجد.. اعطني دليلاً واحداً أستطيع إثباته والتحقق منه وليس مجرد استنتاجات وأقوال!

قال الملحد:

_توجد آلاف الأدلة على ذلك.

قال المحترم:

_اعطني دليلاً واحداً فقط!

قال الرجل الملحد:

_تريد دليلاً واحداً؟!

قال المحترم:

_نعم!

قال الملحد:

_إن الإنسان البدائي عندما بدأ ينظر حوله ويرى المخاطر؛ بدأ الاعتقاد في فكرة الآلهة الأعلى منه..

قاطعه المحترم قائلاً:

_ها قد بدأنا في تلاوة الأساطير والخزعبلات! لقد قلت لك أيها الرجل بأن تعطيني أدلة أستطيع أن أتحقق منها وليس استنتاجات يستطيع كل أحد أن يقولها!

قال الملحد:

_ بالطبع هذا دليل! بل هو دليل من أوضح الأدلة! فالعلماء عندما بحثوا في المجتمعات البدائية؛ وجدوا طقوس العبادات ليست معقدة مثل تلك التي في المجتمعات الحضارية.. ووجدوا أن تلك المجتمعات البدائية كانت تُقدس كائنات وآلهة عديدة.. آلهة في السماء وآلهة

على الأرض وفي الأنهار والجبال. وبعد أن أنهى العلماء والباحثون دراساتهم؛ بدأوا في وضع النظريات والأدلة على أن الدين من اختراع البشر وأنه قد تطور مع السنين.

قال المحترم:

ـوأين هو الدليل في كلامك على أن الإنسان لم يكن له دين منذ أن وجد؟! بل إن كل كلامك الذي قلته الآن؛ يؤكد أن الدين كان مُصاحباً للإنسان في جميع حياته.. بل هو يؤكد على أن دين التوحيد هو الذي كان أصلاً في تلك المجتمعات.. كان أصلاً فيهم؛ ثم حُـرَّف تدريجياً مع الزمن.

الدين صفة وراثية

قال الملحد:

ـالكلام الذي قلته أنا؛ يدل على أن الدين صفة وراثية تتوارثها الأجيل بطريقة بيولوجية بحتة ويختلف الدين من مكان إلى آخر!

قال المحترم:

ـصدقت! الدين بالفعل صفة وراثية في الإنسان.. صفة وراثية قد جعلها الله فينا معشر الإنسان.. جعلها فينا لكي نُلبي النداء إذا ما أتنا داعٍ من الله.. وكل إنسان لابد له من دين.. لا بد له من دين يؤمن به...

فاقتطع الرجل الملحد كلام المحترم قائلاً:

_أيها الكذّاب! كيف تدعي أن كل إنسان لا بد له من دين؟!! فـ ها أنا ذا! إنسان وليس لي دين.. والكذب ليس غريباً عليك؛ لأن المؤمنين _كل المؤمنين_ كاذبون.

الإلحاد دين وعقيدة

تبسم المحترم.. ثم قال:

_بل إن الإلحاد دين وله كهنته وإيمانياته! فالإلحاد هو دين التوهان والضياع.. هو دين المجهول واللاشيء، والملحدون يؤمنون بالتوهان واللاشيء.. يؤمنون باللاشيء بأنه خلق كل شيء.. فتُنسب إليه الخلائق.. وإليه يُنسب العقل والقدرة.. وإليه تُنسب الأفعل والأعمال.. وعلى الرغم من أنه لاشيء؛ إلا أنه خلق كل شيء.

قال الملحد:

_ كيف تعتبر الإلحاد دين؛ وهو في الأصل جاء لهدم الدين؟!!

قال المحترم:

_الدين هو الإيمان والاتباع.. والإيمان والاتباع فطرة في الإنسان.. فطرة في الإنسان لا يستطيع أن يمحوها أو أن يقربها. فمن الناس من يؤمن ويتبع الله الواحد.. ومنهم من يؤمن ويتبع هواه فيبتدع آلهة عديدة متعددة لتُسهل له ما يهواه، وفي حالة الإلحاد؛ فإنه يؤمن ويتبع اللاشيء والمجهول والضياع.

قال الملحد:

ـمهما يكن ما تقول! فالإلحاد ليس بـ دين.. ولا يندرج أصلاً تحت تلك الأديان المبنية على الأساطير والخرفات.. الأديان التي تحض على الكره والقتل.

قال المحترم:

ـبل الإلحاد دينٌ وإن كرهت ذلك! دينٌ يدعو للكره والبغض والضغينة والتفحش والإجرام.. دينٌ مبني على أسخف الأساطير والخرافات.. دينٌ يتيه بمن يؤمن به ويُضله ولا يصل به إلى شيء.. دينٌ مبني على كل ضروب الرجم بالغيب من غير دليل.

قال الرجل الملحد غاضباً:

ـالدليل الذي يتكلم به الإلحاد؛ هو كلام العلماء وأبحاثهم.. فهل أنت لا تصدق كلام العلماء الذين أفنوا حياتهم في الدراسة والأبحاث؟!

ردَّ المحترم قائلاً:

ـ لا يوجد عالم يقول بالمجهول واللاشيء أيها التائه! ثم إن العلماء من الناس.. وإذا فقد الناس الدليل والبرهان؛ فإن لهم ألسنة ويستطيعون أن يتكلموا بها.. ولكن العبرة في الذي يستخدم لسانه ليقول الحق.

قال الملحد:

ـوأنا أقول لك بأن هؤلاء علماء؛ فأي حق ودليل بعد أقوالهم تُريد؟

تعجب المحترم على صلابة عنق هذا الملحد وركوبه رأسه.. فردَّ عليه قائلاً:

_ دليل يحسه الناس ويتحققون منه ويرونه أمام أعينهم ويحسون به في أنفسهم.. فيشعرون في قرارات أنفسهم بأن هذا هو الحق فعلاً.. وإن لم يكن هناك دليل؛ فإن كل الناس لها ألسنة ويستطيعون أن يتكلموا.. ولكن كلامهم وما يزعمونه حينها؛ ما هو إلا الكذب.

قال الملحد:

_ وأي دليل تملك أنت غير خداع الناس وتخديرهم؟

أدلة المؤمنين

قال المحترم:

_ الدليل الذي معي؛ هو أنني آتي للناس ويأتي من هو مثلي.. ونقول لهم إن الله هو الذي خلقهم وخلق الذين من قبلهم من آباءهم وأجدادهم.. وهو الذي سوى الأرض وعدلها لهم، وكذلك السماء هو الذي سوّها أيضاً.. وهو الذي أنزل لهم الماء؛ فأخرج لهم الزرع رزقاً لهم.. وهو الذي خلق جميع ما في الأرض وخلق السماء.. وعليهم أن يتقوا الله ويخافوه بأن يتجنبوا ظلم أنفسهم وظلمهم من حولهم؛ فتلك تقوى الله.

قال الرجل الملحد:

_ إن الناس لا تحتاج لأي قول أو رأي من المؤمنين؛ فالعلم والنظريات قد فسرت كل شيء.

أكمل المحترم ولم يبالي للرجل الملحد.. بل نظر لمن حوله من الجلوس الذين يستمعون لهذه المحادثة الشيقة:

ـ الناس تستمع وتنصت إلينا.. ثم تبدأ الأسئلة والتساؤلات تنكشف وتتوارد على خواطرهم.. وهذه الأسئلة تختلف من شخص إلى آخر على حسب النشأة والطبائع.. ولكن الحق لا يهمه نشأة أو طبائع؛ لأن الحق وهو الله؛ هو من خلقهم هكذا مختلفين.. ولمَّا كان هو من جعلهم هكذا مختلفين؛ كان قادراً على أن يعطي كل واحد مسألته ويُجيبه على تسأله.. فيرضى بها السائل كل الرضا ويجد نفسه بالفعل فيما قاله الإله الخالق الـمُريد الذي يعلم ما يريد.

قال الملحد مستهزأ:

_ وهل نزل الإله من مكانه البعيد السحيق وقام بتجميع الناس وأجاب على تساءولاتهم؟

قال المحترم مجيباً:

_ الله ليس بعيداً حتى ينزل.. بل هو مع كل أحد من الناس، وهو الذي علمنا من علمه، وهو الذي أخبرنا عن قدرته؛ فوعينا ما أخبره لنا وما علمنا إياه.. فبدأنا نُجيب على الأسئلة التي يسألها الناس ونعطي كل أحد إجابته ونُسمعها له، ونُبين له تساءله.. نُبين له تسآءله ثم ننسف ما ليس له قرار من المعتقد والظن حتى لا يكون لأحد حجة بعد ما قاله الله وفصله.. وحتى لا يكون لأحد حجة إذا ما أخذ الله يُحاسب الناس يوم القيامة على ما بدا منهم في هذه الحياة.

ردَّ الملحد قائلاً:

_ أحقابٌ وأممٌ وحضاراتٌ قد خلت، وكل منهم ليس له شبه بغيره.. فثقافات للشعوب لربما لم يجتمع أهل الثقافة الواحدة على شيء معين من اختلافها وتنافرها، فما بالك بثقافات من في الأرض؟ وسرائر وأفعال وظنون.. وبواطن أمور للشعوب خاصة بهم دون المشهور..

وشعبيات منتشرة للشعوب وأحاديث.. وتواتر أنباء وأحداث.. وبداءة وحضارة؛ ثم أنت تحكي وتقول عن استغفار لذنوب.. وخوف وخالق.. وتسوية وتعديل للأرض والسماء! أويستوي كل ذلك عندك؟

قال المحترم:

_ ومالي أنا بالقرون والأحقاب التي مضت؟ هي قرون وأحقاب قد مضت ربي أعلم بهم.. حسابهم على الله كما هي حال أحد في كل زمان. غير أن الذي لا تعرفه؛ أن الله هو الذي جعلنا شعوباً وقبائلاً.. وأن أحسن الشعوب والقبائل عند الله؛ هي التي لا تظلم نفسها ولا تظلم غيرها.. لذلك لا أبالي لقرون مضت؛ لأن حسابهم على الله كما هو حال كل المخلوقات والدوآب.. فحساب كل أمة وكل أحدٍ عليه.

ردَّ الملحد متهكماً:

_ هل أنت تزعم وتقول بأن إلهك هذا؛ قد خلق كل واحد من الناس على حِــدةٍ.. وأنه هو الذي وراء خلق الناس كلهم.. وأنه هو المسؤل عن كل أولئك البشر على مر السنين التي لا يمكن حصرها؟

أجاب المحترم قائلاً:

_ نعم أقول بذلك وكل ثقة وعزة وإيمان بربي. نعم أولئك كلهم خلق الله.. خلق الله قد انتشروا في الأرض بعدما كانوا أمة واحدة.. وأن الله هو الذي خلقهم كما تراهم بلا حدود تحدهم... بلا حدود مكانية أو حدود عقلية.

من الذي خلق الله؟

قال الرجال الملحد وكأنه وجد ضآلته:

_إذاً لو اتبعنا كلامك بأن "الله" هو الخالق الذي خلق كل شيء؛ فإننا ولابد بأن نصل لهذا السؤال: من هو الذي خلق "الله"؟

سكتّ المحترم وأخذ ينظر إلى الرجل.. فقال الرجل الملحد له:

_ماذا حدث لك؟ أين هي إجاباتك الإيمانية؟

فقال المحترم بعد أن فكر قليلاً:

_الناس ليست في حاجة لمثل هذا السؤال لكي تؤمن بالخالق! لأن الإيمان بالخالق موجود في كل مكان من حولهم.

قال الملحد:

_هذا لتعرف أن ما تؤمن به؛ ما هو إلا خرافة وأسطورة تُسمى بـ "الإله".. ولو أنك صادق؛ لأجبت عن السؤال: من هو الذي خلق الله؟

أخذ المحترم يفكر هنيهة.. ثم قال للرجل:

_هل تعرف الملقوق والمشروق.. والبشريقي والمشنيقي؟

قال الملحد:

_ وما هي تلك الأشياء؟

قال المحترم:

_هذه ليست أشياء.. وليس لها معنى.. وإنما أنا قد اخترعتها الآن!

قال الملحد:

_وكل ذلك _طبعاً_ لكي تهرب من سؤال: من خلق "الله"؟

قال المحترم قاذفاً فدامغاً الباطل.. كعادته:

_لا.. بل من أجل أن تعرف أن مفهوم "الخلق" لم يكن له وجود قبل أن يخلق اللهُ الكون والأشياء.. وكلمة "الخلق" قبل أن يبدأ الله الخلق؛ لم يكن لها معنى.. ومثلها مثل الكلامات التي ذكرتها لك الآن.

قال الملحد بعد أن أخذه التفكير بعيد جداً.. فقال بعد وهلة من الزمن:

_إذاً.. ماذا تقصد؟!

قال المحترم:

_أقصد أن مفهوم الخلق وفكرة الخلق لم يكن لهما تعريف أو وجود لكي تخرج علينا بوساوسك وتقول لنا: من الذي خلق الله؟ ففكرة الخلق أصلاً لم تكن موجودة قبل الله.. فالله هو الذي ابتدعها واخترعها.. ولذلك لا يمكن استخدامها بأي حال من الأحوال وتطبيقها على الله الذي اخترعها وابتدعها أصلاً.

كلام المحترم قد أخذ الرجل الملحد بعيداً جداً.. ثم قال بعد زمن من التفكير:

_إذاً..

قال المحترم يُكمل له جملته التي يحجبها كبره عن نطقها:

_إذاً.. كل خلق خُلق؛ فالله هو الذي خلقه.. وكل موجود وجد؛ فالله هو الذي أوجده.. إليه يرجع الخلق وأمر الكون.. كل شيء في الكون ناقص؛ والله الكامل.. كل شيء في الكون باطل؛ والله هو الحق الموجود.. لم يكن هناك زمان قبل خلق الكون، ولم يكن هناك مكان.. فقط هناك الله.. الله الصمد فقط.

أين هو الله من الظلم والشر؟

قال الرجل الملحد بعدما أفاق بعد مدة وحاول الهروب من الصاعقة التي قذفه بها المحترم:

_ إذا كان الله موجوداً؛ فأين هو من كل هذا الظلم والألم والشرّ المنتشر في هذه الحياة؟

أجاب المحترم:

_ إذاً أنت تعترف بأن هناك ظلماً وشراً يحتجان من يمنعهما ؟

قال الملحد:

_ وهل الظلم والألم والشرُّ يخفيان على أحد أيها الرجل؟

قال المحترم:

_ أولم تقل منذ قليل بأن الدين قد اخترعوه المؤمنون قديماً ليكفوا الناس عن الفساد وليخرجوا بهم من الأزمات التي كانت تواجههم وأنه أفيون للشعوب لتخديرها؟

قال الملحد:

_ نعم قلت ذلك.

حرك المحترم رأسه متعجباً من تناقض هؤلاء الملاحدة.. ثم قال:

_ الظلم والشرّ والألم هما نتاج الملحدين أمثالك على مر العصور والدهور، والله هو الذي يبعث المؤمنين لكي يقضوا على الظلم والشر الذي تسبب فيه الملحدون.. الملحدون الذين كفروا بالله وضلوا ووقع في الفتن.. الملحدون الذين يعبدون ظلامات أنفسهم!

وبسببكم أنتم أيها الملاحدة؛ قد خرجت لنا أفاعيل وظنون لا تعرف استقامة ولا سابقة وكأنها الظلمات.. كأنها ظلمات البحار تبسط أجنحتها على النفس البشرية.. وبسبب أفعالكم قديماً؛ قد زُين للناس بأنه إذا ما مات أحد منهم؛ كان لهم أن يقتلوا بعضاً من الأحياء ويدفنوهم مع ذاك الميت.. وأنه إذا ما أنجبت ولداً وخفت وخشيت الإنفاق عليه؛ كان لك أن تقتل هذا الولد ولا حرج.. وهذا هو الإلحاد وما فعله في الأحقاب والقرون التي مضت!

من هو الله؟

كان من ضمن الموجودين في قاعة الجلوس أحد الفتيان.. أحد الفتيان اليافعين الذي قال للمحترم:

_ وما هو الله الذي تؤمن به أيها المحترم؟

قال المحترم :

_ انظر إلى السماء وإلى الأرض!

فإن كنت أزلت ساتر الغافلين عنك؛ فإن الله هو خالقهما.. وهو من ابتدعهما وأعطاهما صورتهما.. وهو ربُّـهما وربُّ كل شيء بينهما.. وهو ربك وربُّ ما ترى وما لا ترى إن كنت تيقنت وتُعد ممن يشعر.. من أولئك الذين يشعرون ويحسون أنه هو ربهم كما يجدوا ويحسوا بذلك في أنفسهم.

الناس الموجودون في قاعة الانتظار كلهم يستمعون بإنصات شديد إلى المحترم.. عمَّ الصمت قليلاً.. ثم انتبه الرجل الملحد بعدما أخذته كلمات المحترم بعيدا جداً؛ فقال لمن بجواره:

_ هل يدرك أنه قال ما قال؟

ثم نظر حوله للموجودين، وساخراً قال:

_ أتسمعون ماذا يقول؟ يتهمونا بالظلم والفساد؛ والدين أصلاً هو سبب الفساد!

قال المحترم متوجهاً إلى من حوله من الناس؛ فنظروا كلهم إليه غير مبالين للرجل:

_ هو خالقكم ومسوي كل نفس منكم.. وهو موجدكم وموجد أبآءكم وأجددكم وموجد أبناءكم وكل من سمعتم عنه ومن لم تسمعوا عنه.. هو من صورهم وأخرجهم كل واحد على صورته.. وكما الحال قبلنا وفينا؛ تكون الحال بعدنا؛ فالله هو الذي يخلق.. وهو الذي يسويّ.. وهو الذي يصور.

الرجل لا يصدق بأن كل هذا الكلام عن ربٍ وخالق؛ قد قيل وهو موجود.. ومحاولاً الدفاع عن إلحاده وعن مكانته قال:

_ الرجل أصابه الجنون والعمى! _أي المحترم إسحاق_

قال المحترم ونظره على المتواجدين من حوله:

_ هو ربُّ الشمس وما أشرقت عليه..

وهو ربُّ الشمس وما غربت عليه إذا كنتم تستنبطون وتستنتجون من ورآء أبصاركم التي ترون بها وفيكم عقول تعقل، وفوق ذلك وجود ذلك الشعور الذي في أنفسكم.. ذلك الشعور الذي بسببه تنصتون إليَّ.. الشعور الذي يسري فيكم بأن الله هو خالقكم وهو ربكم! أولا ترون أنكم تستمعون إليَّ منصتين وكأني أكلمكم على شيء فيكم؟!

قال الملحد وقد انتبه من إنصاته.. كالعادة:

_ ما أراك إلا رجلاً مخبولاً يعيش في خياله !

نظر المحترم إليه.. فقال الرجل الملحد:

_ قل لي إذاً ! كيف خلق الله ربك كل تلك الأنواع والكائنات الحية بما فيها من تشابهات وتعقيدات؟ إن كنت صادقاً فعلاً.. فأخبرنا!

أخذ الرجل ينظر لمن حوله من الجالسين وكأنه يسخر من المحترم.. ردَّ المحترم قائلاً:

_ خلقها ربها كما خلقها.. وقد أمرنا أن نُنقب ونبحث ونسير في كل الأرض حتى نعرف كيف بدأ خلقها.. وأمرنا أيضاً أن نضع النظريات والأسس العلمية الصحيحة السليمة حتى نعرف كيف بدأ خلقها؛ فنُزيده هو تعظيماً وإجلالاً عن الكيفية التي خلق بها كل ما نرى وما لا نرى.

الفتى اليافع يسأل المحترم مرة أخرى:

_أزمنةٌ وأحقابٌ كل بما فيه من مخلوقات قبل التاريخ أو بعده.. كيف كان هذا الأمر؟

أجاب المحترم قائلاً:

_ إن كنت من السائلين عمَّا قبل خلق السماء والأرض؛ فلك ما قلت وما سأقول!

كان الله وحده ولم يكن هناك شيء أو أحد غيره.. لم يكن هناك شيء حتى تقول أنه كان فيه، أو أنه كان كذا فأصبح كذا.. بل هو صمد كما هو.. لا معنى ولا تصور لما قبل خلق الكون غيره.. غير الله الخالق المريد.. المريد الذي يعلم ما أريد.

قال الفتى اليافع:

_ أخبرني أكثر عنه إذا سمحت أيها المحترم!

قال المحترم:

_ هو من ابتدع السماء والأرض بما فيهما وأوجدهما ولم يكن لهما أثر من قبل.. هو عليم يعرف كيف يُحدث ويُخرج الأمور إلى الواقع والوجود؛ فهو من جعل ما كان كيف كان.. وهو الذي يجعل ما يكون كيف يكون.. وهو من سيوجد ويجعل ما سيكون كيف سيكون.

هو الحكيم! فانظر إلى ماحدث ويحدث وما سيحدث كيف يتم بهذه الحكمة! إذا نظرت بعينك؛ فإنك لا تجد تفاوت في السماء أو الأرض.. بل ترى جميع الأمور تسير ولا تفاوت فيها ولا ثغرات.. فقط تناسقٌ وحسنٌ يكاد أن يُذيب العقول.

كل ما يدهشك ويعجبك؛ هو الذي أخرجه وأودع فيه من العجب والمعرفة والقدرة ما يصعق العقول.. وهو الذي أخرج وأقرّ ما لا تعلم وما غاب عنا وسيُعلم وما غاب عنا ولن يُعلم.

وهو من جعل الضحك والبكاء.. وهو الذي جعل الحياة والموت.. لم ينزل الماء من السماء ويسكنه في الأرض؛ إلا رزقاً لما على تلك الأرض من أحياء.. ولم يخلق الشمس؛ إلا لتكون سراجاً يتوهج يضيء الأرض.

كل ذرة في السماء أو في الأرض كانت؛ يعلمها ولا تتحرك إلا وهو قائم عليها.. يراها ويعلمها.. وقائم على كل شيء آخر في هذا الكون ويراه.. يرى كل شيء على حدة ويرى كل شيء مجتمعاً في رؤية واحدة.

هو لا ينسى أي شيء أو يضل عنه.. يعلم عدد ما في السماء والأرض من أشياء كـ علمك بعدد أصابع يديك أو أشد علماً.

كل الموجودين في قاعة الجلوس منجذبين ويستمعون بإنصات شديد إلى المحترم.. ثم أخذ هذا الفتى اليافع يسأل المحترم مرة أخرى:

_ وكيف خلق الإله هذا الكون ؟

المحترم تظهر عليه السعادة لهذه الأسئلة؛ فأجاب قائلاً:

ـ خلق الكون من كتلة صماء.. كتلة صماء لا فراغ فيها ولا هواء.. كتلة صماء قد أفتقها وأخرجها من هيئتها وتكتلها فجعلها السماء والأرض.. وكما بدأ الكون من تلك الكتلة الصماء المسدودة يعود الكون إليها أيضاً.

وكل ما خلقه الله في هذه الأجل.. الأجل منذ أن خلق الله السماء والأرض إلى حين عودتهما إلى ما خُلقتا منه، ثم ماهو بعد ذلك؛ ما هو إلا مشيئة الله كله جميعه.. وكل ما حدث في هذا الأجل؛ هو الذي شاءه.. وكل ما حدث في هذا الأجل من صغير أو كبير؛ قد كتبه وسطَّره في كتاب عنده.

عقلية الملحدين

الشاب اليافع يظهر عليه إنصاته بشدة وقد أخذه كلام المحترم ليتعمق في التفكير.. إلا أن الرجل الملحد لم يطق إنصات الناس للمحترم؛ فقال مخترقاً حاجز الإنصات بعدما أفاق هو الآخر من كلام المحترم:

ـ يا أيها المتخيل البديع! أجئت لتخدع الناس بحبكةٍ في القول وكأنها قصص وأساطير الأقدمين الأولين تحكيها؟! فلو أنك تعلمت شيئاً عن تركيب الكائنات الحية وخواصها الوراثية.. أو قرأت شيئاً عن الهندسة الوراثية أو "التطور البيولوجي"؛ لعرفت كيف هو الترابط بين أشكال الحياة المختلفة.. وأنه على مرَّ مئات ملايين السنين قد تراكمت الخواص البيولوجية في الكائنات البدائية جيلاً بعد جيل حتى تتلائم مع البيئة المحيطة وهكذا حتى خرجت الكائنات الحية كما نراها الآن.

ولو أنك اطلعت أو قرأت شيئاً عن هياكل الحيوانات المنقرضة.. أو قمت بدراسة بسيطة عن الشبه والتشابه بين هذه الهياكل على مرّ العصور والدهور؛ لعرفت كيف تغيرت الأجناس.. وكيف أن تلك الأجناس المختلفة قد تم تدجينها أو تهجينها وتطورت من نوعها الأصلي لكي تتأقلم مع أشكال الحياة التي تعيش أو ستعيش فيها.

ولو أنك قرأت شيئاً عن المملكة الحيوانية أو النباتية.. أو قرأت شيئاً عن الصراع من أجل البقاء في الظروف المناخية الصعبة على حافات الصحاري أو في أجواء الجليد القارس؛ لعلمت ما هو الانتقاء والانتخاب الطبيعي.. ولعلمت أيضاً كيف نشأت الأنواع الحية.. ولعلمت وتوصلت إلى فهم الروابط والصلات المشتركة بين الكائنات العضوية وعلاقتها الجنينية وتوزيعها الجغرافي وتعاقبها الجيولوجي.

ولو أنك قرأت شيئاً عن تطور المخ البشري؛ لعلمت أن ذلك بسبب الانتخاب الطبيعي على مرّ ملايين السنين.. وبسبب هذ الانتخاب الطبيعي؛ قد اكتسب المخ قدراته وخواصه الأساسية.. ولعلمت أيضاً أن كل الأشياء التي حكيتها أنت منذ قليل؛ ما هي إلا أقوال وقصص قد اخترعها الأقدمون ليُحافظوا على المجتمع ويخرجونه من أزماته.. وكل تلك الأقوال والأديان قد تطورت مع الزمان فتفاوتت واختلفت كل على حسب المكان.

اقرأ وابحث عن نشأة الكائنات الحية؛ تظهر لك الحقيقة كاملة.. سيظهر لك كيف بدأت الحياة على الأرض بتتطور للكائنات على مرّ الأجيال، وأن الحياة لم تخرج إلى ما هي عليه إلا

بسبب الانتقاء والانتخاب الطبيعي من أنواع أولية وابتدائية، وكفاح المخلوقات من أجل البقاء ومن أجل الحياة.. ثم يظهر لك بعد ذلك زيف ما تؤمن وتدعُ الناس إليه.
تحكي عن حسابٍ وعقاب.. وتوبةٍ واستغفار.. وإيمانٍ وحمد.. أيها المسكين!

قال المحترم في سكون:
_ ليجتمع العلماء الصادقون من كل الأقطار والبقاع ويُعلنوا، وليبحثوا عن هياكل الحيوانات ويُشَرِّحوا، وليفندوا مجاري ومصبات الأنهار وينقبوا، وليرتحلوا إلى كل مكان في الأرض ويحفروا، وليجمعوا العينات ويدرسوا، وليتفقوا على شيء ولا يختلفوا.. ليفعلوا كل ذلك ثم ليخرجوا علينا بما اتفقوا عليه! وحينها.. حينها تماماً سوف يزداد إيماننا ونعلم ونرى كيف بدأ الله خلقه الأنواع والكائنات.

أمثالي إذا تعلموا؛ يزدادون إيماناً.. وأمثالك إذا تعلموا؛ يزدادون كفراً.. أمثالي يعلمون أن جميع الأنواع والكائنات قد تم خلقها بقانون واحد.. وأن الإرادة والقوة والفعل الذي خلق جميع الأنواع والكائنات؛ إنما يعود إلى شيء واحد.. شيء واحد قد خلقها من الأرض نفسها وقد مهد الطريق والبيئة المحيطة قبل عملية الخلق؛ فتشابهات تلك المخلوقات جميعاً في الخلق.. تشابهت في الخلق لأن الخالق واحد، ولأن القانون المستخدم واحد، ولأن المصدر الذي خُلقوا منه جميعاً واحد.. ولأن البيئة التي ستعيش فيها تلك المخلوقات هي بيئة واحدة.

قال الملحد بعدما شدّه كلام المحترم.. كالعادة:
_ هلَّا تركت عنك تلك القصص التي كالأساطير !

تبسم المحترم وقال:

_ وتصفني أنا بـــ المسكين ! فإن كان هناك مساكين في تفكيرهم؛ فما أنت إلا واحد منهم!

ألم تعلم يا رجل بأن كل النظريات التي تتكلم عن نشأة الكون وأصل الأنواع؛ لا يقوم عليها دليل واحد؛ لأنه ببساطة لا يمكن لأي أحد أن يعلم مما خُلقت الأنواع والكائنات.. وأن كل العلم الموجود عن هذه الأنواع والمخلوقات؛ أنها قد خُلقت بنفس القانون.. وخُلقت من نفس المصدر، وأما عن الكيفية؛ فلا أحد يعلم شيئاً عنها.

وإليك شيء يُذهلك أكثر ! فإن الخالق المريد الذي خلق تلك الكائنات والأنواع؛ هو الذي عرّفنا بأنه خلقها جميعاً بنفس القانون.. وعرفنا أيضاً أنه استخدم في خلقها ما لا علم لنا به، وقال بأن كل الكائنات أزواج.. وأنه خلق تلك الأزواج من الأرض ومما تنبته تلك الأرض.. ومن ثم جعل خاصية التناسل فيها.. ثم عرّفنا بأن هذا لا يكفي، بل هناك شيء لا علم لنا به قد استخدمه في خلقها ليتم الإبداع والإخراج.

هنا تدخل الفتى اليافع مرة أخرى في المحادثة؛ فقال:

_ إذاً أنت تطعن في العلماء الأفاضل وتطعن في كل تلك العلوم والتي بسببها قد خرج كل هذا التقدم والرقي والسهولة في العيش والتعامل؟

قال المحترم:

_ كلا ! أنا لم أطعن بالطبع في العلماء الصادقين ولا يحق لي أن أطعن فيهم.. ولكن هناك خطأ قد وقع فيه الكثير من الناس.. وهذا الخطأ؛ هو أنهم يحصرون أمر الفصل والحسم في نشأة

الحياة ونشأة الأنواع في علماء الأحياء وعلماء الوراثة والكمياء والجولوجيا.. وكأن هؤلاء العلماء لهم الحق في الفصل في هذا الأمر الشديد الصعوبة بل المستحيل.

إلا أن الذي لا يعلمه الأكثرين من الناس؛ أن هؤلاء العلماء لا يمتازون على أحد إذا تعلق الأمر بمعنى الحياة ومغزها.

قال الفتى اليافع:

ـإنهم علماء أصحاب علمٍ ومعرفة أيها المحترم!

قال المحترم:

ـأعرف.. وإن كل الذي يمكن لهؤلاء العلماء أن يفعلوه ولهم الشكر في ذلك؛ هو أنهم يصفوا ما يجدون تحت أيديهم.. وأنهم يحاولون استنباط القوانين التي أدت إلى ما يجدونه أمامهم.. وأنهم يحاولون حساب ما يحدث من ارتباطات وعلاقات وتفاعلات في كل جزء من أجزاء الأمور التي تؤثر فينا ونؤثر فيها وتشغل تفكيرنا مما نراه ونعيش فيه من حولنا.. ومن ثم يحاولون صياغة المعادلات وتسخير ما اكتشفوه لكي يُستخدم في تيسير أمور الحياة (كالعمليات الجراحية، والأدوية التي ساهمت كثيراً في مساعدة البشرية، ومن ثم تطوير وتسهيل أمور الحياة والرفاهية).

وهذا جُـــلّ ما يستطيعه العلماء.. أمَّا أن يأتي أحدهم ويتجرأ ويزعم بأن أصل ومغزى الحياة هو ما يقوله؛ فهذا ما لا يمكن قبوله؛ لأنه من يزعم بذلك؛ فإنه يزعم من حيث لا يدري بعظم الجهل الذي يمتلكه!

قال الفتى اليافع:

_ هل من الممكن أن توضح بمثال أيها المحترم؛ لماذا ترفض أقوال العلماء عن أصل ومغزى الحياة؟

قال المحترم:

_ لو أنه خرج علينا صانعوا الشطرنج من النجاريين والمصممين، وقالوا بأنهم أمهر الناس في هذه اللعبة لأنهم هم من صنعوها؛ لقلنا إن هذا الكلام لا يمكن قبوله بأي حال من الأحوال. ولو أنه خرج علينا المهندسون والحرفيون الذين يصنعون آلات الكتابة، وقالوا بأن لهم كل الحق في أن يستأثروا بالكلام في معاني الحروف وأسرار الكلمات لمجرد أنهم يصبوا الحروف ويديروا الآلات ويخرج من تحت أيديهم كل كتاب؛ لقلنا إن هذا الكلام لا يمكن قبوله بأي حال من الأحوال أيضاً.

قال الفتى اليافع :

_ إذاً ماذا تقول في أمر هذه المخلوقات والكائنات والأنواع؟

قال المحترم:

_ لقد سألتني عن ذلك وأجبتك.

قال الفتى اليافع:

_ نعم! سألتك وأجبتني.. ولكني أريد مثالاً يُنير لي الظلمات التي في مخيلتي!

قال المحترم:

_ هل تقصد مثال يضحد أقوال الملاحدة في كلامهم عن الخلق ونظرياتهم عن كيف بدأ هذا الخلق؟

قال الفتى اليافع:

_ نعم إذا سمحت أيها المحترم.. وأعلم أنني أثقلت عليك.

قال المحترم:

_ دعني أوضح لك بمثال نراه تحت أيدينا ومن ثم نأخذ نسأل بعض الأسئلة الهامة ونحاول أن نجد لها إجابة حقاً وليس مجرد ردود نرددها هكذا.

فلنأخذ مثالاً لإحدى الجزر البعيدة جداً في قلب المحيط! ولتكون هذه الجزيرة معزولة تماماً عن باقي القارات.. ويوجد في هذه الجزيرة بعض النباتات والحيوانات النادرة، والتي لا يوجد لها مثيل في أي مكان آخر في العالم.. اتفقنا أيها الفتى اللامع؟

قال الفتى متحمساً وبتركيز ينظر إلى المحترم:

_ اتفقنا أيها المحترم .

أبحر المحترم قائلاً:

_ السؤال الأول: كيف جاءت هذه النباتات والأنواع إلى هذا المكان؟

تدخل الرجل الملحد وقطع الكلام.. فقال:

_ أنا أعلم عن أي الجزر تتحدث؟

تفاجئ المحترم بقطع كلامه.. فأجاب متعجباً منه:

_ أوحقاً تعرف؟!

فقال الرجل الملحد:

_ على هذه الجزر توجد طيور عاصفير قد اكتشفها العلماء، وهي تؤيد كل الكلام الذي قلناه عن الانتخاب والارتقاء.

قال المحترم:

_ وكيف يؤيد وجود تلك العصافير الكلام عن الانتقاء والتطور؟

قال الرجل:

_ إن هذه العصافير قد تغيرت بشكل بسيط جيلاً بعد جيلاً.. ومع مرور الزمن قد تراكمت أعدد لا تحصى من التغيرات الدقيقة جداً على مدى السنين.. وقد تغيرت أشكال تلك العصافير نتيجة تراكم الصفات ونتيجة التمايز وعمليات التعديل والتي اكتسبتها الأجيال اللاحقة.

قال المحترم:

_وكيف عرفوا بأن هذه العصافير قد تغيرت؟!

قال الملحد:

_من الأحافير التي وجدوها أيها الضال!

قال المحترم:

_وكيف عرفوا أن هذه الأحافير تعود لتلك العصافير؟!

قال الملحد:

_لأن لها نفس التراكيب الداخلية والهياكل أيها الجاهل!

قال المحترم:

_المهم! إلى ماذا صارت تلك العصافير؟

قال الملحد:

_ صارت بشكل ملاحظ؛ أنواعاً جديدة وراثياً وتشريحياً وتغييرت مناقيرها.

قال المحترم:

_هل مازالت كما هي عصافير؟

قال الرجل:

_ نعم بالطبع.. مازالت هي عصافير كما هي.

قال المحترم:

_ وكيف تطورت وتغيرت وهي لم تزل كما هي عصافير؟

قال الرجل:

_ هي لم تتطور.. بل تكيفت مع البيئة.

قال المحترم:

_ طيب..

ثم أخذ المحترم نفسُه.. وعلى تعجب وانذهال من عقلية هؤلاء؛ نظر إلى الفتى اليافع وقال له:

_ عند ماذا توقفنا؟

قال الفتى اليافع:

_ كنت تتسأل عن كيفية مجيء الأنواع والكائنات إلى الجزر البعيدة في المحيط.

قال المحترم:

_ نعم بالضبط.. فالسؤال الذي يطرح نفسه وبشدة، ويحاول أن يجد له إجابة؛ هو كيف جاءت هذه النباتات والأنواع إلى هذا المكان؟

ودعني هنا أتقمص الفكر الذي يقول بالتطور والانتخاب والارتقاء! ولنرجع بالزمان إلى الوراء.. إلى الوراء كثيراً جداً قبل وجود أي مخلوق.. قبل وجود أي مخلوق حيث البروتون والبكتريا والخلايا الأولى والجسيمات الدقيقة جداً. ودعني أقول ما يقوله الارتقائيون من أن هذه الجسيمات الدقيقة والخلايا قد ارتقت وانتخبت حتى خرج أول مخلوق ابتدائي، وهذا بالإغفال والتغاضي عن الموت وعن الأمراض والأسقم وعن باقي المخاطر.. وكأن الكون ينتظر هذا المخلوق الابتدائي ليهيء له كل شيء لتحقيق نظرية أحدهم!

وبالإغفال والتغاضي عن منابع الإسئلة المنهمرة، والتي تكاد أن تكسر رؤوسنا منشدة حاجتها لأن تجد إجابة! وبالتغاضي عن كل ذلك؛ نكتفي بسؤال واحد هنا:
هل تلك "البكتريا والبروتونات والجسيمات الدقيقة" عارفة إلى ماذا ستصير؟ أم أن هناك "قوة وعقل وفعل" تتحكم في هذه البكتريا وهذه الجسيمات، وأن هذه "القوة والعقل والفعل" هم في الأصل الذين خلقو وكونوا هذه الجسيمات الدقيقة؟

قال الفتى اليافع:
_ فلو كانت الإجابة بأن الجسيمات الدقيقة هي التي وراء عملية الخلق والتكوين؛ ماذا ستقولون أيها المحترم؟

قال المحترم:
_ لو كانت كذلك؛ لقلنا هذا كذب وافتراء.

قال الفتى اليافع:

ـ ولماذا أيها المحترم سيكون كذب وافتراء؟

أجاب المحترم:

ـلأنه لا يمكن قبول القول بأن البروتونات قد استطاعت أن تخرج الكائنات العبقرية البديعة؛ ثم عجزت عن تزويد تلك الكائنات بما يمدها بالحياة الهنية وبالاكتفاء الذي لا يعرضها للمخاطر والمفترسات.. وكل ذلك كان سينفعها في مشوار التطور الطويل.

أو بالأصح لا يمكن قبول ذلك؛ لأنه لا يمكن تصديق أن البروتونات أو الجسيمات الدقيقة قد أخرجت وخططت لخروج أول مخلوق بديع؛ ثم أغفلت أن تخرج للكائن الجديد ما يجعله يتفق هو والأنواع الأخرى التي ستخرج منه مستقبلاً.. حتى لا يأذي أحدهم الآخر.

ولا يمكن قبول ذلك أيضاً؛ لأنه من يقول بالتطور والارتقاء قد تصور عالماً خالياً من المخاطر.. المخاطر بشتى أنواعها، وهو قد تصور العالم هكذا؛ لأنه لو تصوره بالمخاطر؛ لما خرج علينا بالقول بالارتقاء أو بالانتخاب؛ لأن بروتوناته وخلاياه ومخلوقاته الابتدائية لن تنجو وستظل في الوحل أبداً.

ولا يمكن قبول ذلك إجمالاً ؛ لأنه يختلف مع ما لدينا من المنطق والعقل.

قال الفتى اليافع:

ـولو كانت الإجابة؛ بأن هناك "قوة وعقل وفعل" هي من وراء الخلق والتكوين؛ ماذا ستقولون أيها المحترم؟

قال المحترم:

_ لاتفقنا نحن والإرتقائيون في جزء ولاختلفنا في الجزء الآخر.. اتفقنا في أن هناك بالفعل"قوة وعقل" هي من وراء الخلق.. ولاختلفنا اختلافاً كلياً تماماً في الكيفية التي صارت عليها تلك "القوة والعقل" في الخلق؛ لأنه لا يمكن بأي حال من الأحوال قبول طريقة الخلق التي يقول بها الارتقائيون والتطوريون.

قال الفتى اليافع:

_ ولماذا أيها المحترم لا يمكن قبول طريقة الخلق التي يقول بها الارتقائيون؟

أجاب المحترم قائلاً:

_لأنهم حينما يقولون انتخاب وارتقاء؛ فإنهم من حيث لا يعلمون ينسفون منهجهم بقولهم ذلك؛ لأنه كيف تنجو المخلوقات البدائية مع كل هذا النقص الذي كان يعتريها في خلقتها الأولى؟!

ثم إن طريقهم أيضاً منافي للمشاعر والأحاسيس التي تسري فينا..

وفوق ذلك أن طريقتهم منافية للمنطق والعقل الذي نفكر به.. وإذا وافقنا على هذه الطريقة؛ فإنه ستظهر أسئلة لا يمكن الإجابة عنها بالعلم ولا بالمنطق أو بالعقل.. بل ستكون الإجابات نابعة من الخيال والتوهان واللاشيء.. ولربما الخيال والتوهان لن يقبل تلك الإجابات أصلاً وسينفر منها.

الملحدون يُهدمون دينهم بأنفسهم

قال الفتى اليافع :

_ هل تقصد تلك الأسئلة التي سائلها التطوريون لأنفسهم؛ مثل قول أحدهم: كيف تم تحويل الأنواع الابتدائية إلى أنواع صحيحة كما نراها؟ أو كيف يستطيع كائن بسيط أو عضو جسدي بسيط أن يتغير ويكتمل في صورة كائن عالي التكوين أو عضو مشيد بدقة؟

أو قوله: إذا كانت الأنواع قد نشأت وانحدرت من أنواع أخرى عن طريق تدرجات دقيقة؛ فلماذا لا نستطيع أن نرى في كل مكان عدداً لا حصر له من الأشكال الانتقالية، و لماذا لا تكون الطبيعة كلها في حالة فوضى بدلاً من مما نراه من كون الأنواع محددة؟

أو قوله أيضاً: هل نستطيع أن نصدق أن الانتقاء الطبيعي يمكنه أن يُنتج من أحد الجوانب عضواً ذا أهمية تافهة مثل الذيل الخاص بالزرافة والذي يُستخدم كمضرب ذباب، وعلى الجانب الآخر يُنتج عضواً غاية في الروعة مثل العين؟

وقوله عاد ماسبق: ماذا يمكن أن نقول عن الغريزة التي تقود النحل إلى أن يصنع خلايا، وبذلك يسبق الاكتشافات الخاصة بعلماء الرياضيات عميقي التفكير؟

قال المحترم:

_ أحسنت أيها الفتى اللامع.. أحسنت أيها العالِـم !

فأمر هؤلاء التطوريون كله جميعه؛ أنهم يلاحظون ويكتشفون القوانين التي تعيش وتسيير عليها الكائنات الحية ولهم جزيل الشكر في ذلك؛ ثم يُلبسون تلك القوانين مع الوساوس

والخزعبلات التي في أنفسهم؛ فتخرج لنا نظريات لا تستقيم إلا في حياة التائهين الذين ينتمون إلى المجهول وإلى اللاشيء.

تكلم الرجل الملحد مجدداً.. وقال منتفضاً:

- الخزعبلات والوساوس هي ما تقوله أنت، وليس ما يقوله العلماء!

قال المحترم:

_ الخزعبلات والوساوس هي أنني أخرج على الناس؛ وأحاول أن أقنعهم وأقول لهم أن الرمال المستخدمة في بناء البيوت؛ إذا ما تركنها لمدة من الدهر فإنه واجب بأن تُخرج من تلقاء أنفسها بيوتاً على أشكال مختلفة متنوعة مبهرة لمجرد الظن بأن كل هذه الروعة في البنيان وكل هذا التنوع والاختلاف؛ يستحيل بأن يكون وراءه مهندسون وبناة مهرة يعرفون ماذا يفعلون.. وإنما هو ناتج عن الرمال العمياء المجردة التي مرَّ عليها الزمان فتطورت وارتقت واستطاعت بقدرة منها أن تنتخب وتخرج كل أجزاء ذلكم البنيان.

قال الرجل وضاحكاً باستهزاء:

_ هذا مثال باطل؛ لأن الرمال الجامدة لا يُعقل بأي حال من الأحوال أن تكون شبيه بالخلايا والبروتونات المجهرية الحية التي كانت في البداية قبل وجود الأنواع والمخلوقات!

قال المحترم:

_ مادمت صفة الخلق والصنع مصاحبة للأشياء الصغيرة؛ فإنه لازم ولابد كما أخرجت الكائنات المجهرية الحية أشكل الحياة المختلفة؛ فإنه لازم ولابد أيضاً بأن تُخرج الرمال الجامدة

العمياء أشكال البنيان الجامد الأعمى والمختلف أشكاله أيضاً.. فالحي يُخرج الحي مثله، والجامد يُخرج الجامد مثله.

التشابه بين الكائنات والأنواع

لم يتفوه الملحد بكلمة بعدما أفحمه المحترم.. وأما الفتى اليافع؛ فأخذ يضحك مذهولاً من العلم الذي عند المحترم.. سكتّ الفتى هنيهة ثم قال:

_ وماذا تقول أيها المحترم في التشابه الكبير بين الأنواع والمخلوقات والكائنات؟

قال المحترم مبتسماً للفتى:

_ هذا إن دلّ؛ فإنما يدل على كمية القدرة والعلم التي عند الله؛ فهو قد استطاع أن يجعل الشكل الخارجي للمخلوقات متشابهاً جداً تماماً؛ ثم فرق بين تلك المخلوقات في نفسها وفيما يصدر عنها.. وكل ذلك لم يجعل الله يتلخبط أو أن تختلط عليه الأوراق؛ فيقع بسبب عملية التشبيه هذه في الخطأ أثناء الخلق والتقدير.

وأما عن الطريقة التي خلق الله بها الكائنات؛ فهذا ما أمرنا أن نبحث عنه ونُثبته بالمعادلات والقياسات الصحيحة.. إلا أن الله قد عرفنا أيضاً بأنه قد استخدم في عملية الخلق أشياء لا علم لنا بها ولن يكون لنا علم بها.. وتلك هي الروح.. الروح التي إذا سُحبت من مخلوق ومات؛ لم تستطع تحريكه.. ولكن بالروح التي فيه؛ فإنه يتحرك بدون الشعور بأي صعوبة.

سكت المحترم قليلاً وأخذ ينظر إلى الرجل الملحد.. ثم قال:

ـ وقبل أن أنهي هذا الحديث؛ قل لي أيها الرجل الملحد: لماذا إذا كانت البيئة المحيطة بالكائنات الحية لم تتغير منذ أن كانت؛ ما الذي سيضطر تلك الكائنات لأن تتغير؟!!

فالأكل مازال هو الأكل.. والشرب مازال هو الشرب.. والهواء والتنفس مازال هو بعينه الهواء والتنفس.. والأهوال وسفك الدماء مازال كما هو.. وكيفية التناسل والجماع مازالت هي الكيفية.. والوله والرغبة قبل الجماع عند الحيوانات مازال كما هو.. والود والحب والعشق أثناء الجماع ما زال كما هو أيضاً.. وحب الأم لولدها وعطفها عليه مازال كل ذلك كما هو.. فمالذي جعل المخلوقات ترتقي وتنتخب وتتغير إذا كان كل ما حولها لم يتغير وكيفيته مازالت هي الكيفية؟

قال الملحد:

_ مهما يكن ما قلت وتقول؛ فالتطور والارتقاء علم لن تستطيع أنت وأمثالك ضحده.

قال المحترم:

_لو فرضنا أن الارتقاء والانتخاب والتطور حق فعلاً _وما هو بحقٍ أبداً_؛ فلماذا لم تسطع تلك المخلوقات البلهاء الحمقاء بقدرة منها وحسن تدبير أن تنجو من الآلم والابتلاءات، والمحن والصعاب، والقتل والنجاة بنفسها؟ ولماذا أيضاً لم تستطع بقدرتها الفعالة أن تجد حلاً لذلك الموت اللعين الذي يُصيبها فيفرق الأحباب ويجيء بالآلم وإدماء القلوب؟!

أم أن تلك المخلوقات ما هي إلا مخلوقات بلهاء حمقاء لا قدرة لها على شيء مغلوبة على أمرها، وأن هناك من يتحكم فيها ويُكسبها صفاتها وما نجده فيها؟

اللا شيء هو الذي خلق الكون عند الملحدين

أخذ الملحد يُتهته في كلامه ولا يعرف بماذا يُجيب.. إلا أن المحترم لم يتركه؛ بل نزل عليه بالضربة القاضية.. فقال له:

_ قل لي يا هذا! من الذي خلق هذا الكون؟

الرجل لا يريد أن يُكمل هذا النقاش والحوار؛ إلا أن هذا السؤال ثقيل لا يمكن تركه؛ وإلا لشمت الناس فيه.. فقال بعد هنيهة، ولا يهم ما الذي سيقوله! فالأهم هو أن يتكلم وكفى؛ والكلام هو الذي سيتكفل بحفظ ماء الوجه:

_ الكون لا يحتاج لأحد لكي يخلقه.. والمصادفة وحدها كافية لتفسير كل نظام ملحوظ.. فلو أنك أتيت بصندوق من الحروف الأبجدية وأعدت تنضيده مئات المرات وملايين المرات على مرّ الدهور والسنين؛ فإنه سيخرج نظام كهذا النظام وكون كهذا الكون.

قال المحترم وقد أثار ذهوله هذا الرّد.. إلا أنه معتاد على ذلك، فقال:

_ إذاً.. لو اتبعنا افترآئك وزعمك فيمن خلق الكون؛ كان من الواجب واللازم إلى أن نصل ولا مفرَّ إلى القول بأن المجهول واللا شيء هو الذي خلق السموات والأرض وخلق الكون. خلقهم عندما قرر بأنه سيكون شيء.

أم أنك تقول بأن الناس هم حقاً من خلقوا الكون وخلقوا السماء والأرض.. أبهذا تقول أم بذاك؟ تم وانتهي أن ما تقوله وتتكلام به؛ ما هو إلا باطل أبطلته وأخرجته، وكذب ادعيته.. انتهى النقاش.

لماذا يؤمن الناس بالإلحاد رغم كذبه؟

بدء هذا الرجل الملحد في التحرك.. ولا يُسمع له إلا أصوات أقدامه تأخذه بعيداً.. ثم قال الفتى اليافع:

_ ما الذي يجعل الناس تؤمن بالكفر والإلحاد رغم أن كذبه بائن؟

أجاب المحترم وخاتماً هذا الحديث:

_ الكبر والإيباء الذي في صدورهم؛ هو الذي يحول بينهم وبين الإيمان.. يأتي إليهم الحق؛ فلا يركنوا إلا إلى الباطل ويرضون به.

ثم إن هؤلاء الملاحدة لن يستمع إليهم أحد إلا من هو على شاكلتهم ومثلهم.. يجتمعون في هذه الحياة ومن ثم يُلقون في السعير يوم القيامة.. السعير الذي يستغيثون فيه من شدة حره المذيب يُريدون ماءً؛ فلا يُـأتى لهم إلا بماء حمم البراكين ليست بشيء معه.. وإذا وضعوه على أفواههم ليشربوا؛ شويت وجوههم الكريمة.. وإذا أردوا طعاماً ليأكلوا؛ فسوف يُأتى لهم بثمار شجرة لعينة لا وصف لقبحها وسوءها.

أخذ المحترم نفَسُه ثم أخرجه وظهر على وجهه الحدة...ثم قال:

_ وفي النهاية! إما المؤمنون أو الملحدون هم الذين على حق، إما نحن أو هم.. إما صادقون وعلى طريق قويم.. وإما في الضلال والخصام البعيد.

* * *